نبذة مختصرة عن تاريخ الأدب الفارسى..ترجمة: أميرة طلعت

العنوان الأصلى للمقال: A Brief History of Persian Literature

المصدر: http://www.iranchamber.com/literature/articles/history_literature.php

ترجمته عن الإنجليزية: أميرة طلعت مراجعة: أيمن بدر

اللغة الفارسية:

إن اللغة الفارسية فى عصر الإمبراطورية الأخامينية والتى كانت تحفظ فى نقوش مسمارية كانت تعد لغة هندوأوروبية ولها صلات قريبة باللغة السنسكريتية (الهندية القديمة) والأفستانية (لغة النصوص الزرادشتية المقدسة). وبعد سقوط الآخامينيين تطورت اللغة القديمة في إقليم بارس وفى وسط فارس أو(بهلوى) (وهو اسم مشتق من بارثاوى أى بارثىّ). وهذه اللغة البهلوية كانت تستخدم خلال عهد الساسانيين برغم البقية الصغيرة الباقية مما كان يعد فى يوم من الأيام أدب عظيم. وبقى حوالى مائة نص باللغة البهلوية أغلبها دينية ومكتوبة نثرًا. ومع ذلك فإن مجموعات الرومانسيات المكتوبة باللغة البهلوية ساهمت بالكثير فى مادة "شاه نامه" للفردوسى.

بعد الفتح العربى أصبحت معرفة اللغة العربية ضرورية. لأنها لم تكن فقط اللغة الوحيدة للحكام ودولتهم ولكن بسبب الدين الذى أحضروه معهم ولاحقا للتعليم الجديد. وبالرغم من أن اللغة البهلوية استمرت لتكون لغة الكلام فى الحياة الخاصة إلا أن العربية كانت سائدة فى الدوائر الرسمية لمدة قرن ونصف. ومع ضعف السلطة المركزية، ظهر شكل جديد معدّل من البهلوية بالتركيب النحوى الصحيح للغات الهندواوروبية ولكن بصورة مبسطة ومليئة بالكثير من الكلمات العربية . وهذه هى الفارسية المستخدمة الآن.

وظلت العربية مستخدمة فى إيران بالرغم من قلة درجة استخدامها- كما كانت تستخدم اللاتينية فى أوربا كلغة للمتعلمين. كما استخدمها أبو على سينا (ابن سينا) والبيرونى والرازى والغزالى وآخرون، وبالفعل فإن العديد من أشهر الأسماء فى الأدب العربى هم من رجال لهم أصل فارسى. ولكن استخدام العربية قل بوجه عام فى حين تطورت الفارسية بسرعة لتصبح أداة لأدب عظيم قبل نشر تأثيرها إلى الأراض المجاورة. ففى الهند، أصبحت اللغة الفارسية والشعر الفارسى رائجا فى الطبقات الحاكمة. وفى البلاط الرسمى لامبراطور المغول "أكبر" تم اختيار الفارسية كلغة رسمية فانتشرت من ثم وتم دمجها بعد ذلك على يد "الهندى" وتسببت فى ظهور اللغة الأوردية.

وقد أثرت الفارسية بشدة حتى غرب إيران فى لغة وأدب تركيا وقد اعتمد الشعر التركى على النماذج الفارسية فيما يتعلق بالشكل والأسلوب كما اقتبس مفردات كثيرة منها.

كما نلاحظ ملمحاً فى اللغة الفارسية وهو المدى القصير الذى تغيرت من خلاله عبر سنواتها الألف أو اكثر من وجودها كلغة أدبية. فمثلا قصائد "رودكى" شاعر السجع الفارسى الأول والذى مات عام 941 نجد أنها واضحة للقارئ المعاصر. إن للأدب الفارسى أيضا خصائص رائعة جديرة

بالملاحظة وأكثرها روعة هى الشهرة الاستثنائية للشعر. وحتى وقت قريب لم تكن هناك فعليا أى دراما أو روايات مكتوبة. فالأعمال النثرية كانت فى أغلبها فى نطاق التاريخ والجغرافيا والفلسفة والدين والأخلاقيات والسياسة، وقد كان الشعر هو المتنفس الوحيد للتعبير الفنى. إن الأدب الفارسى القديم كان غالبا ما ينتج تماما تحت حماية ومناصرة ملكية والذى نتج عنها كثرة شعر المدح والإطراء. كما تأثر أيضا بقوة لاتقل فى شدتها عن القوة الملكية وهى الدين وخاصة فى الصوفية والتى تسببت فى خلق عدد كبير من الشعر الصوفى الروحانى.

الشعر الفارسى

إن الشعر الفارسى القديم كان دائما ما يقفى. وأشكال الشعر الرئيسية هى القصيدة والمثنوى والغزلية والرباعية. القصيدة أو (الغنائية) هى قصيدة طويلة موحدة القافية وغالبا ما تكون فى المدح، أو تعليمية أو دينية. أما المثنوى فتكتب فى مقاطع شعرية مقفاة وغالبا ما تستخدم الشعر الملحمى والرومانسى والقصصى. أما الغزلية (الغنائية أو العاطفية) وهى قصيرة بالمقارنة بالأشكال السابقة وعادة ما تكون فى العشق والصوفية، وتتنوع فى مقاطعها الشعرية ما بين أربعة إلى ستة عشر مقطعا شعريا جميعها فى قافية واحدة. واختراع الغزل - بهذه المقاطع السابقة - كان مقدمة – فى آخر مقطع - لاسم مستعار للكاتب (التخلص). أما عن (الرباعى) وتجمع على رباعيات. ومؤخرا تم ترتيب مجموعة من غزليات الشاعر وباقى شعره هجائيا تبعا للقوافى فيما عرف باسم "ديوان".

ولن يكون غريبا هنا أن نصف صعوبة تفسير الشعر الفارسى للقارئ الغربى وأضف إلى ذلك المخاطر العامة للترجمة - وفى حالة الشعر الفارسى- فإن هذه الصعوبات مثل الإستخدام الحر للصور الصوفية، والمراجع الأخرى القرآنية والأدبية المتكررة والمألوفة والتلميحات والإشارات الضمنية والاستخدام العام للقافية الموحدة وهو شكل غاية فى التأثير فى الفارسية ولكنه غير مناسب لكثير من اللغات الأخرى. ولكن المهم فى كل هذا هو أن شعر الفارسية يستند إلى درجة وطبقة أعلى من جمال اللغة عن الأمم الأخرى وذلك لتأثيراتها. وذلك هو السبب فى أن عظمة مجلد (قصائد فى مدح الأمراء) لا نزال نستمتع بقراءة النص الأصلى على الرغم من أنه غير مناسب للترجمة. وباختصار" فإن السحر العظيم للشعر الفارسى يكمن فى لغته وموسيقاه ونتيجة لذلك فإن قارئ الترجمة يفقد مضطرا روح الموضوع " كما قال السيد " اى. دنيسون روس".

وفى الصورة المختصرة القادمة للمجال الواسع للأدب الفارسى ليس لنا أن نأمل بفعل أكثر من ذكر بعض من كثير من المؤلفين البارزين وأن نخصص فقرة أو اثنين لأكثرهم شهرة على الإطلاق.

الأدب القديم

على الرغم من الاعتقاد بأن التشظى فى الشعر الفارسى فى أغلب الظن بدأ فى القرن الثامن فالتاريخ الحقيقى للأدب الفارسى يبدأ من أقل سلالات حاكمة فى القرنين التاسع والعاشر والذى اقترن بانحدار الخلافة. وأكثر هؤلاء أهمية هم السامانيين والذين أقاموا فى (بخارى) واحدة من أولى وأكثر الجماعات المتميزة التى ترعى التعليم والرسائل. وهنا نجد أن أبو علي سينا والمعروف فى الغرب بإبن سينا قد طور طب وفلسفة اليونان القديمة وكتب أعمال عديدة

والتى ظهر أثرها جلياً ليس فقط فى الشرق بل أيضا فى أوربا حيث تـرجمت إلى اللاتينيـة، وقـد تم استخدامهم مؤخرا كما فى القرن السابع عشر. وقد كتب " ابن سينا " أغلب أعماله بالعربيــة ولكنه ألف موسوعة للمعارف (دانش نامه يى علائى) بالفارسية.

والشـعراء الأشـهر من شـعراء البلاط كـانوا "دقيقى" و "رودكى". و"رودكى" يُعـد أول الشـعراء الفرس العظام حيث كتب أعدادا كثيرة من الأبيات ولكن القليل منهـا قـد نجـا. وأسـلوبه مباشـر وبسيط وغير متكلـف وغـير مزخـرف – كمـا يبـدو لبعض نـاظمى الشـعر المحكمين فى العصـور اللاحقة، ولكنه راق كثيرا للذائقة الحديثة. وكان " دقيقى" مؤلف الملاحم فُوّض لكتابـة عمـل عن الملـوك القـدامى لبلاد فـارس، ولكنـه أنهى فقـط ألـف مقطـع شـعرى قبـل وفاتـه. وبعض هـذه المقاطع أدمجت فى كتاب "شاه نامه" الشهير.

الفترة الغزنوية والسلاجقة الأوائل

قيــل أن أربعمائــة شــاعر نقلــوا إلى بلاط الســلطان محمــود، لهــذا من الجــدير بالــذكر منهم "الأنشورى" أعظم مادحى السـلطان محمـود ويليـه "الفـرخى"، "مانوشـهرى" و"أسـدى". ومن كتاب النثر الأكثر احتفاءا بهم كان "البـيرونى" –مؤلـف التقـويم عنـد الأمم القديمـة- وكـان يكتب فقط بالعربية.

اعتبر العصر السلجوقى كثانى فترة قديمة فى الأدب الفارسى، وكانت مزدهرة فى كلا من النـثر والشعر. أشهر الأعمال النثرية تشـمل الكتـاب المـؤثر "إحيـاء علـوم الـدين" بالعربيـة و ملخصـه بالفراسية المعنون بـ"كيمياء السعادة"، و"تـاريخ الـبيهقى" للعصـر الغزنـوى: و"سياسـت نامـه"، رسالة فى فن الحكم لـ"نظام الملك"، وزير ألب ارسلان ومالك شاه، والكتـاب الممتـع "قـابوس نامه" لـ" كاى كاووس"، وترجمه البروفيسور "ليفى" بعنـوان " مـرآة للأمـير" وهـو مجموعـة من حكايات الحيوانات فى النسخة الهندية الأصـلية بعنـوان "كليلـة ودمنـة" لــ"نصـر اللـه"، والكتـاب الساحر "شهر مقالـه" أو أربـع محاضـرات لــ "نظـامى آروزى"، "فـارس نامـه" لــ"ابن البلخى"، والرسالة الشهيرة فى شعرية "رشيدى وطواط". أربعة من الأعمال التى ذُكرت – "شهر مقالـة" و "تاريخ البيهقى" و "قابوس نامه" و"سياست نامه"- يعدوا عند الشاعر "بهار" أعظم أربـع قطـع نادرة فى النثر الفارسى عند الأوائل.

كان عدد من كتاب هذه الفـترة يكتبـون الشـعر والنـثر وكـان ألمعهم "ناصـر خسـرو"، وهـو كتب تقريبا خمسة عشرة عمل نثرى وثلاثين ألـف بيت شـعرى، ولم يتبقى من هـذا أقـل من النصـف. وأشهر عمل نثرى له هو "سفر نامه" وهو عبارة عن روايه لرحلته لمصر. ومعظم قصـائد "ناصـر خسرو" غنائيـات طويلـة ووموضـوعاتها دينيـة وأخلاقيـة، ويجب أن يقـترن اسـم "ناصـر خسـرو" بأسماء هؤلاء الشعراء الستة –الفردوسى، الخيام، الأنوارى، الرومى، سعدى، حافظ- حيث أجمـع تقريبا على اعتبارهم أعظم ست شعراء، كل فى عالمه الخاص. وشـعر الآخـرين المشـهور بهـذه الفترة يشمل الصـوفى "أنصـارى" و "أبـو سـعيد" و"بابـا طـاهر" بحمـدان، و(غنائيـات قطـران)، وملاحم "جورجانى" الرومانسية "ويس ورامين"، ودواوين شعر الشـاعرين المولـودين فى الهنـد "مسعودى سعدى سلمان" و "الرومى". والسبعة شعراء الآخرون فى هذه الفـترة كـانوا بعيـدين عن الشهرة والنبوغ، وهم الخيام، السنائى، المعزى، الأنوارى، الخاقانى، نظامى، العطار.

"الخيام" حر الحركة –"الشخص الوحيد الذى أعرفه"- قال برتراند راسل، "كان شاعرا ورياضيا كلاهما"- ربما مازال الشاعر الفارسى الأفضل والأعلى قدرا فى أمريكا. وكان هناك جماعة يشكون لمدة طويلة فى حقيقة نسبة تلك الرباعيات كلها او بعضها إليه، ولكن الاكتشاف الحديث لمخطوطات أقدم من المعروفة سابقا أزالت هذه الشكوك.

شعر "الخيام" أهمل فى إيران حتى نهاية القرن التاسع عشر، ولاشك أنه كان هناك رفض من المذهب الأرثوذكسى له. وعندما جعلته ترجمة "فيتزجيرالد" فجأة ذى شعبية فى الغرب بدأ الإيرانيون يدركوا ميزاته كشاعر، وكما نرى أن هناك بعض النقاد من بلده على استعداد ليمنحوه مكانا مع عظماء الأمة. منذ أن استخدم مجاز الصوفية، والخيام أصبح مرحب به كصوفى، ولكن بينما بعض رباعياته نظمت لتنشر التأويل الصوفى، الانطباع العام لعمله واحدٌ من ألوان مذهب المتعة مع مسحة خفيفة من الكآبة، ولد ليقبل فناء الحياة المأسوى، قوة المصير والتجاهل المطلق للإنسان. هذا الموقف مادى أكثر منه ربوبى، ولكنه كان يملك بعض العدالة مقارنةٌ بـ"لوكريتويس".

"السنائى" الذى كتب بأسلوب مشابه لأسلوب "ناصر خسرو"، كان مؤلف الملمحتين صوفيتين عظيمتين، النماذج الأولية للنفائس الأخيرة للعطار والرومى، بالإضافة إلى ديوان شعر كبير. "المعزى" لقب بـ "عباس إقبال" كـ"واحد من الباحثين فى الفن فى اللغة الفارسية"، كتب فى الغالب شعر مديح بأسلوب عالى ومحكم. "الأنوارى" هو مؤلف أعمال شعرية عديدة، غالبا فى المديح وأسلوبه فخم وأحيان يحتاج إلى تفسير، اعتبره البعض واحدا من أعظم الشعراء الفرس. شعر "الخاقانى" فى غالبه متكلف. وآخر ثلاثة شعراء ذكرناهم –المعزى، الأنوارى، الخاقانى- كانوا جميعا مشهورين فى إيران، غالبا لذكاءهم أساليبهم، ولكن من ناحية التطبيق كان من الصعب ترجمتهم لذا فهم أقل شهرة فى الغرب. وهذا ليس نفس الوضع بالنسبة للشاعرين الآتى ذكرهم.

النظامى، ولد فى جنجه فى كوكاسوس سنة 1140، كان كاتبا مشهورا غزير الإنتاج خاصة فى "الشكل المخمس" ، وهى سلسلة من خمس ملاحم رومانسية عظيمة. وتتألف من "مخزن الأسرار"، ملحمة صوفية ألهمه بها السنائى، والملحمتين الرومانسيتين "خسرو وشيرين" و "ليلى والمجنون"، "الكسندر نامه"، و"هفت بيكار" وهى عبارة عن قصة حياة "بهرام گور". أسلوبه أصيل و نابض بالحياة، وأعماله ممتعة وتنال شعبية كبيرة، وكانت أجزاء من قصائده الرومانسية هى الموضوعات المفضلة لرسامى المنمنمات.

"فريد الدين العطار"، ولد تقريبا حوالى 1136، كان شاعرا عظيما وأصيلا حيث أنتج العديد من الأعمال الدينية والتعليمية. كان صوفيا فى الأساس، وله تأثير كبير على "الرومى". أفضل شاعر عرف بأعماله، "منطق الطير" (ترجمه فيتزجيرالد بعنوان "برلمان الطير"، وهو قصص رمزية صوفية حيث تبحث الطيور كلها عن "السيمورغ" الأسطورى لينصبوه ملكا عليهم. القصة ترمز إلى بحث الروح الاتحاد مع الله، وتنتهى باكتشافهم أنه ليس لديهم حياة منفصلة بدون هدف بحثهم.

"السيمورغ" يخاطبهم قائلا:

“المترحل والرحلة والطريق

لم تكن إلا من نفسى إلى نفسى ووصولك

لكن نفسى على بابى...

تعال، أنت تتلاشى إلى وسط رسمك

وتكون المرآة الأبدية حيث ترى:

الأشعة التى تجولت فى عمق الظلمة

ارجع، عائدا إلى مهبط الشمس"

القرن الثالث عشر كفصل جديد:

تمخض القرن الثالث عشر عن عبقريتين شاعريتين من الطراز الأول: سعدى والرومى. ومن الواضح أن تاريخهما بارز، حيث أنهم ألهموا على نحو استثنائى من هذه الفترة العصيبة. "حمد لله مصطفي" ترك أعمال بارزة فى كلا من التاريخ والجغرافيا، وكذلك فى الملاحم، "ظفر نامه" أو "كتاب النصر"، فى خمسة وسبعين ألف مقطع شعرى، و"نصر الدين الطوسى" كتب فى الفلسفة والمنطق. وهناك ثلاثة شعراء بارزون فى هذه الفترة: "العراقى"، مؤلف "اللمعات الصوفية" أو "اللمحات"، "أمير خسرو"، المعروف بـ"ببغاء الهند" ومؤلف ما لا يقل عن خمس دواوين شعرية، و"الزقانى" شاعر الهجاء.

أولا طبقات الأعمال التاريخية هى "تاريخ الجوينى" "جهان جوشا"، رواية لفتوحات المغول، و"تاريخ الجزجانى"، وهو مصدر مهم ككتاب عن تاريخ الهند المسلمة، والكتاب العظيم "جامع التواريخ" لرشيد الدين أو "التاريخ الشامل" ، "وتاريخ وصّاف". وكان أسلوب هذه الفترة يراعى الزخرفة اللفظية، "الجوينى" –كما قال "أربيرى"- "كان المفسر الأبرع من حيث القدرة الفنية فى الزخرفة اللفظية"، بينما "وصاف" "شكل أسلوبه على نمط "الجوينى" فى معظم تعقيداته وإطنابه. ومن كتابات هذه الفترة لاحظ "ليفى" أنها كانت "مليئة بالمجاز والكناية والسجع، وكان المعنى عادة مفقود فى زحام الألفاظ.". وعلى النقيض، كان عمل "رشيد الدين" ذو الضمير اليقظ -ويعتبره "براون" الأفضل بين كل المؤرخين الفرس- نموذج للوضوح.

القرن الخامس عشر إلى الأمام:

أنتج القرن الخامس عشر لنا العديد من المؤرخين البارزين –نظام الدين شامى، مؤلف "ظفر نامه" أو (تاريخ تيمور)، و"اليزدى" الذى كتب عمل بنفس الاسم، وحافظى ابرو، وخافى، ودولت شاه و مير خاند مؤلف الكتاب الهائل "روضت الصفا" أو (حديقة الصفاء). وكتاب النثر الآخرون للملاحظة منهم "الداوانى" مؤلف "أخلاقى جليلى"، و"الكاشفى" الذى أعاد صياغة (كليلة ودمنة) بالتفصيل المعروف بـ "أنوارى سهيلى" أو (ضوء كانيبوس). ومن شعراء القرن الخامس عشر "صوفيس مغربى" و "قاسمى أنور" و "كاتبى" والورع "نعمت الله والى" و "الجامى".

"الجامى" "اشتهر عالميا بأنه آخر رجل بارز فى تاريخ الأدب الفارسى القديم"، (أربيرى) ولد عام 1414. رجل يملك معرفة واسعة لها ثقلها مثلها مثل عبقرتيه الشعرية، "الجامى" أنتج ما يقارب من 45 عملا، أشهرهم "بهارستان" و"الديوان" و"هفت اورنك" أو (سبع عروش)، وهى سلسلة

مكونة من أربع أعمال وعظية وتعليمية وثلاثة رومانسية (سلامان وابسال، يوسف وزليخا، ليلى ومجنون) حيث نوى منافسة عمل "النظامى".

بعد "الجامى" الذى مات بعد وصول الصفويين للعرش بقليل، وبدأ الشعر الفارسى عامة فى للتدهور والذبول. وبلاشك لم يكن هناك شعراء من هذا الطراز الجيد بعد القرن الخامس عشر، ولكن فى هذه الفترة الطويلة لم يكن هناك افتقار للكتاب والشعراء الموهوبين، فبعضهم كان له شأن عظيم.

ومن الشعراء الذين لحقوا "الجامى" مباشرة ابن أخته "هاتفى" حيث برز ككاتب ملاحم رومانسية وتاريخية، وأيضا من المشهورين من تلاميذه "اصافى" و"فيقانى" (الذى اكتسب لقب "حافظ الصغير"، "اهلى" و الشاعر الصوفى "هلالى". وأخيرا فى القرن السادس عشر ظهر الشعراء "هيراتى" و "قاسمى" و "كاشى" شاعر المديح و "شانى" و"فسيحى" و "شافعى".

"صائب" (ولد فى 1677) وهو الرجل الأبرز فى القرن السابع عشر ويعتبر عند البعض أفضل شاعر فارسى بعد "الجامى". فى بداية حياته قضى بعض الوقت فى الهند كشاعر فى بلاط الامبراطور المغولى "شاه جهان"، ثم عاد إلى إيران ليصبح شاعر البلاط الملكى لـ"شاه عباس الثانى". كان "صائب" شاعر نشيطا وأصيلا حيث غرس الحياة والحيوية فى القوالب القديمة ووجد مدرسة جديدة. وأيضا كان مشهورا معاصره "فاياز". وكان "آزار" كاتب نثر مشهور فى القرن الثامن عشر، وهو مؤلف "عطش كاده" (معجم سير يحتوى على حياة أكثر من ثمنمائة شاعر) وأيضا ديوان شعر وملحمة رومانسية. وأيضا الكاتب غزير الإنتاج "حزين" أنتج كمتب تاريخ وسير ذاتية وكذلك أربع دواوين شعرية. وغنى عن التعريف الشاعر "نجات".

وفى القرن التاسع عشر "سابا" شاعر بلاط "فتح على شاه" وقد أنهى ديوانا شعريا وملحمة تسمى (شاهنامه)، وكشاعر فاقه "نشأت" وقد ألف ديوانا واحدا. وكان "القآنى" (توفى سنة 1853) أفضل كاتب فى القرن التاسع عشر وربما الأروع منذ "الجامى" حيث كان واحدا من ألمع وأكثر إيقاعا فى شعراء إيران. ومن الأعمال النثرية المعروفة جيدا فى هذه الفترة: كتاب "نصر الدين شاه" بعنوان "يوميات ثلاث رحلات لأوربا" و "السير الذاتية الأدبية للشاعر "رضا قلى خان". فهذه الفترة تميزت بازدياد التأثر بالأدب الأوربى، وهذا التأثير ملحوظ فى أعمال الشاعر "شيبانى" و الآخرين.

أما النهضة الحقيقة فى الأبجدية الفارسية أتت فى بدايات القرن العشرين عندما زادت الرغبة فى استلهام مقطوعات هجائية. وواحد من أبرز الرجال فى هذه الفترة هو "ايرج ميرزا" (توفى عام 1926) وكان شاعرا ذى موهبة ونصيرا لتحرير المرأة. وكان من الشعراء البارزين "اديب" و"بهار" و "لاهوتى" و"شهريار" و"عارف" والشاعرة "بروين اعتصامى". والشعراء اللاحقون أيضا مثل "نيما يوشيج" و "رعدى" و" خان لارى" و "اسلامى" و"جلوشين" و"احمد شاملو" و"مهدى اخوان صالح" و "مسعود فرزاد" و "سهراب سبهرى" و "فريدون مشيرى" و الشاعرة "فروغ فرخزاد". بعض هؤلاء الشعراء قدم قوالب شعرية جديدة للأدب الفارسى. ويجب ألا ننسى الأعمال العظيمة لـ"صادق هدايت" و"صمد بهرنكى" و "صادق شوبك" والآخرين الذين أثروا الأدب الفارسى.